مقال

ذكرتني القول وكنت ناسياً

محمد قاسم- سوريا

في العدد (٧٣) من مجلة گولان العربي حزيران ٢٠٠٢. قرأت مقال السيد سليم والمعنون بـ: «مالم يقله عمر حمدي» فتذكرت كلمات كنت قد كتبتها عنه، بعد مقابلة معه ومع الفنان «دريد لحام» من التلفزيون السوري- برنامج «على عيني» ولقد مرَّ بخاطري حينذاك مامر بخاطر السيد سليم. وكنت أنوي نشر تلك الكلمات ولكنها غابت عن ذاكرتي حتى ذكرني بها المقال. فبحثت عنها بين أوراقي ووجدتها، وهأنذا أرسلها إلى المجلة الغراء ولعلها ستنشرها: لابقصد الدعوة إلى أن يقول عمر حمدي "بأنه كوردي فذلك شأنه هو. ولكن ليعلم هذا النموذج من الناس بأن القيمة الانسانية هي في التوافق مع المعنى الانساني بكل عناصره وخاصة تلك التي كونها الخالق فينا ولانستطيع لها اغفالاً أو انكاراً..

طلب أحدهم مني ذات يوم أن أعلن انتمائي إلى العروبة فقلت: وهل الانتماء إلى القومية اختيار بأيدينا؟

ولو كان كذلك لاخترت أن أنتمي إلى قومية متطورة لاتعاني من مشاكل تعانيها قوميات العالم المتخلف (الثالث) والتي تجعل من الانتماءات الطبيعية والصنيعة معيار قبول انسانية الآخر- الأصيلة- أورفضها... وإليكم ماكتبت!

في حلقة من برنامج "الاتجاه المعاكس" الذي يبث في فضائية "الجزيرة" المشهورة استضيف "الرئيس القذافي" والمفكر المصري المعروف "د. سعدالدين ابراهيم" قال فيها الرئيس الليبي معمر القذافي جواباً على تساؤل حول انصرافه عن هدف قضى من عمره الكثير من أجل تحقيقه: ألا وهو "الوحدة العربية" قال مامعناه:

أنا لا أنفي انتمائي إلى العروبة، كما لا أنسى أن عدداً كبيراً من قبائل افريقية تعود في أصولها إلى العروبة.. هذا شعوري وواقعي ولا أتبرأ منهما.. ولكن! هذا شيء: والسعي لتحقيق وحدة الأقطار العربية شيء آخر.. أثبت الواقع عدم جدواه.

وبالتالي فان العروبة تحولت الى نزعة عنصرية تغذيها احاديثنا وتصريحاتنا وبعض مظاهر حياتنا...! لأن "الوحدة العربية" لاتتوفر لتحقيق: عناصر واقعية.. ودليلنا تاريخ طويل رفع فيه شعارها ولم تتوفر أدنى مستلزمات تحقيقها، على الرغم من (٢٢) علماً: تمثل (٢٢) قطراً عربياً، ترفرف على مبنى "هيئة الأمم المتحدة"..!

لذا فالخير في أن يكون جهدي في نطاق الوحدة الجغرافية التي أنتمي إليها وهي "الوحدة الافريقية". يعزز العناصر الجغرافية فيها: الحالة الطبيعية والتاريخية بشكل عام..

ولا أدري لماذا تذكرت هذه الحادثة في اللحظة التي كنت أتابع فيها حلقة من برنامج الفضائية السورية: "على عيني" والمخصص لخدمة ذوي التساؤلات والاحتياجات من المغتربين السوريين- وهذا جميل كلما ازداد مصداقية... ولعلها حالة تداع نفسي أثارتها كلمة "القومية" استضيف في هذه الحلقة الفنانان المشهوران جداً: "عمر حمدي" التشكيلي و"دريد لحام" الممثل الكوميدي، وكلاهما بالطبع سوريان..

وكعادة الناس- وخاصة الاعلاميين- من شعوب الشرق العربي: فقد وزعت الثناءات والحمد والأوصاف والاطراء... الخ مما توجد فيهما أولا توجد حتى.. فليست الكلمة -عادة- مسؤولة في شرقنا هذا.. ولا أدري لماذا...؟!

هل المسألة تتعلق بمجرد اعتيادات.. أم أنها سوء توازن في الشخصية- سيكولوجية الانسان المقهور في مظهرية الكبت والنفاق- وهما متلازمان عادة في الشخصية على كل حال- وذكرت مدينة "الحسكة" باعتبارها موطن "الفنان العالمي عمر حمدي" وهل ينوي زيارتها

خاصة، بعد أن غادرها منذ سبعة وعشرين عاماً ولم يزرها- باعترافه هو طبعاً- ولكنه تجاهل السؤال.. فكأنه قد ألغى هذه الرقعة الجغرافية من حياته، أو حتى ذلك الزمن من تاريخها وطبعاً كان القرار لديه أصعب في الاشارة من قريب أو بعيد، تصريحاً وتلميحاً بأنه من أصل كـوردي.. وأن "الحسكة" بمختلف شرائحها القومية والدينية والإجتماعية تنتظر لفتة طيبة تقدر فيها عطاءها، وتنعش حياة أبنائها وعطائهم أيضاً..

ومن المؤسف أن السيد "صلاح محمد" المعلق التلفزيوني الناجح على الفنون التشكيلية – وهو كوردي الأصل أيضاً- وصف "عمر حمدي" بكل الأوصاف سوى كونه "كوردياً"..

ذكرني موقفه هذا بمحاضر تحدث عن الشاعر «معروف الرصافي» في احدى المراكز الثقافية فتحدث عن كل صغيرة وكبيرة فيه سوى أصله الكوردي، وكان هو -المحاضر- أيضاً كوردي فلم أتمالك نفسي وقلت له: ما الذي كان يضير لو ذكرت أنه كوردي.. فاستجاب للسؤال سريعاً قائلاً: نعم هو كوردي وكانت أمه عربية.. وكأنه بالاضافة الأخيرة يخفف على نفسه عبء الاضطرار إلى كشف أصله الكوردي..

ويبقى التساؤل في النفس.. لم هذا التهرب من الاعتراف بالأصل "الكوردي"؟

هل هو شعور بالمهانة أم شعور بالخوف؟ ولقد وجدت -والله- فيما قرأت من تاريخ الكورد مايدعو إلى الاعتزاز أكثر، على الرغم مما مر فيه الكورد من محن تاريخياً وراهنا، ولن ينتقص من قيمة الكورد أن لايعلن "عمر حمدي" وأمثاله عن انتمائهم إليهم رغم أنني أتمنى من أعماق نفسي أن يفعلوا، لاتعصباً أو تعالياً أو غير ذلك.. فقط انسجاماً مع قوله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم.." الآية (١٣) من سورة الحجرات.

أو كما قال السيد "سليم" صاحب مقال: "مالم يقله عمر حمدي": "وأنا لا أطلب منه أن يقول ذلك من باب التعصب أو الغلو القومي. فأنا لا أرى أن الكورد يسمون على غيرهم من شعوب الأرض، ولكنني لا أرى أيضاً مايشين في الانتماء إليهم".

وبالمناسبة فإنني أسمي أولئك الكورد الذين ساهموا في اثراء الحضارة البشرية- وتحت أي ظرف- (القيمة الكوردية). وأرى ضرورة الكشف عن هذه القيمة واعتبارها ايجابياً، لأنها في الحصيلة (روح كوردية بظواهر مختلفة). إضافة إلى أنني لا أبتغي من ذلك غلواً قومياً كما يفعل البعض ومن شعوب مختلفة -بما فيهم الكورد- ولكنني فقط أريد مواجهة جهد حثيث من بعض الأنظمة التي ابتلي الكورد بها: في سعيها إلى طمس هوية هذا الشعب المعطاء واللطيف وأكاد أقول والبسيط أيضاً -على الأقل بمعنى من المعاني-.

و أما السيد "دريد لحام" والذي يريد -في المقابلة على الأقل- أن يتربى الأطفال على الحرية واتخاذ قراره مع أهله، أو تربية على عدم هدر الماء، أو المحافظة على البيئة.. أو غير ذلك من القيم الإيجابية... فقد نسي أو تناسى بأن هذه الأمور: ينبغي أن يربى عليها الكبار-والكبار الكبار- فهو يعاتب ويحاسب الفقير الذي قد لايملك ثمن تبديل الحنفية التي تنقط الماء، لأنه يهدر هذه "القطرات اللؤلؤية"- ونحن معه على كل حال في هذا ولكنه -أيضاً- نسي أو يتناسى، أو ربما هو مضطر أن يفعل ذلك. الماء المهدور كنتيجة لاهمال الكبار، والكبار الكبار، وكذلك تلويث البيئة.. الخ في سلوك الفنانين الكبيرين ومايماثله في غيرهم، تصبح الذكرى والمدركات الراهنة..

تتفاعل في النفس.. وتفرز مفهوماً هو: احلال الوهم محل الشعور بالواقع في النفس أو الذهن ولعل شيئاً من هنا، يطغو على سطح المقابلات والأحاديث التلفزيونية أو الكتابات الصحفية وغيرها من وسائل الاعلام المختلفة-إن لم نقل المناهج التربوية أيضاً- في شرقنا هذا، مما يجعل الكلمة (المفهوم) تفقد دلالالتها الحقيقة، وتصبح فقط شعارات براقة نخفي تحتها ما يخالفها- في غالب الاحوال- وكمثال: يفقد مفهوم "الوطن" معناه باعتباره أرضاً وشعباً ومنظومة قوانين وأعراف وتفاعلات اثنية... الخ تنتهي في نهاية المطاف إلى ضرورة أن يكرم من أحسن وعي هذه الأمور والتزم بالقوانين: ويدان من اخترق منظومتها.. أو على الأقل، أن يشعر المواطن في وطنه-أي وطن- بأمان الالتزام بالقانون- الذي سن في ظروف صحيحة وبأسلوب صحيح- لاعتباره معيار الاحتكام والحكم...

أما إذا أصبح الوهم (الأوهام) مضموناً للمفاهيم، وخاصة تلك التي تتعلق بقضايا الوطن والمواطن، وعلاقة الناس بالحرية والممارسة الديموقراطية والسياسية.. الخ فتلك المصيبة الكبرى.. والتي تجعل كل أنسان -حاكماً أو محكوماً- يعيش وهم السعادة مادامت الممارسة الحياتية غير مستقيمة!! وإنني -هنا- أفضل كلمة "الأوهام" على كلمة «الخيال». لأن «الخيال» في الانسان حالة طبيعية وأصيلة، وانما انحرافه عن مسار هذه الحالة يحيلها إلى "الوهم" والذي هو حالة غير طبيعية، ومرتبطة بنوع من الارتباك النفسي- إن لم نقل بحالة مرضية نفسية-

هكذا تصبح الحياة في المجتمعات الشرقية- المتخلفة- وغيرها. وخاصة تلك التي تغيب الحرية السياسية فيها، وعندما يصبح القانون مجرد غطاء لرغبات الساسة المتحكمين بتفصيل القانون على مقاس هذه الرغبات، بدل أن تنضبط هذه الرغبات بمعايير القانون: والذي ينبغي-كما هو متفق عليه نظرياً على الأقل- أن يصاغ من قبل أولئك الذين يمتلكون الأهلية الفنية والأخلاقية والشرعية في سياق المصلحة الوطنية العامة.

والمشكلة أن هذه الحالة، تنساب أو انسابت- وبكثافة- في حياتنا السياسية والاجتماعية.. الخ، مما كاد أن يجعلها مفرغة من المضمون والمرتجى..

فهل سنقضي حياتنا الراهنة، ومستقبل أجيالنا هكذا.. دون أن نتيح للحياة أن تعاش كما أراد الله لها..؟!